

## الفصل الرابع الطاوية

إن الديانات الصينية جميعا مستقاة من نفس المصدر القديم للخبرات الروحية والدينية للحكيم الكبير والنبي العظيم "فو شي"، الذي قام الكثير من حكماء الصين ومفكريها بدراسة عميقة لأعماله خلال العصور التالية، فاستطاعوا بذلك أن يُقدموا لأهل الصين الجديد والعديد من الفلاسفات والعلوم والأديان والتعاليم الأخلاقية. وكان من بين أولئك الحكماء الملك "وان" وابنه "تشيو كونج" (Cheu Kung) و "لاو- تزو" (Lao-tzu)، وجميعهم يحظون باحترام بالغ من أهل الصين على مختلف أعمارهم.

إن أسلوب الحياة والمبادئ التي قدمها "لاو- تزو" في القرن السادس قبل الميلاد والذي كان معاصرا لكونفوشيوس.. تُعرف باسم "الطاوية". وفي الطاوية تتركز الحقيقة الأزلية في كائن يُعرف باسم "طاو" (Tao) الذي كانت صفاته روحية وليست مادية. ويمكن تعريف "طاو" بأنه التجسيم الكامل لجميع الفضائل الأزلية. وهذه الفضائل هي بعينها نفس الصفات الربانية المذكورة في حق الله تعالى في الإسلام، وفي الديانات السماوية الأخرى التي هي من وحي الله عز وجل.

والطاوية تُعلم الإنسان أن يُخضع نفسه تماما للحق (طاو)، وأن يُجاهد ليصوغ حياته حسب صفات "طاو". فإن "طاو" هو المثل الأعلى، والطاوية هي السبيل لإحراز القرب من ذلك المثل الأعلى ونفس هذه السبيل هي التي انتهجها القرآن المجيد فيما يتعلق بالعلاقة بين الله تعالى والإنسان. يقول تعالى:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

(٢ البقرة: ١٣٩)

إن الله تعالى يُعرِّف في الإسلام من خلال صفاته القدسية، والهدف الذي جعل أمام المسلمين هو أن يتخلقوا بهذه الصفات، وأن يصوغوا حياتهم على منوالها. والوصف الذي قدمه لاو-تزو لطاو يماثل تماما صفات الله الحسنى المذكورة في القرآن المجيد. إذ كتب لاو-تزو يقول:

"إن طاو الكبير واسع وعظيم. وهو في الشمال وهو في اليمين. وتعتمد عليه جميع المخلوقات، ولا يُتعبه أبدا كفالتة لهم. إنه يصل بالخليقة إلى الكمال، ولا يبتغي منها أجرا على ذلك. إنه يرزق جميع خللائقه، ولا يسألهم أجرا على ذلك حتى لا يُظن أنه صغير وحقير.

إن الخلائق كلها تتجه إليه في جميع ما تحتاجه، ولكنه لا يُقيمي لنفسه شيئا، ولهذا فإنه يستحق أن يُسمى "الأعظم". إنه لا يعتبر نفسه عظيما، ولهذا فإنه عظيم بحق".<sup>١</sup>

وأیضا هناك وصف آخر يقول:

"الناس يبحثون عنه ولكنه لا يُرى، ذلك هو الكائن الذي لا لون له. والناس ينصتون له ولكن ليس له صوت، ذلك هو الكائن الذي يمكن أن يسمى "الساكن".

يمكن للناس أن يحوزوه ولكنهم لا يستطيعون أن يُمسكوه بأيديهم، ولذلك يمكن أن يُسمى "الخفي". ولا يستطيع أحد أن يدرك المصدر الأعظم لهذه الصفات الثلاثة، ولكنها موجودة في كائن واحد. ورغم أنه لا يضيء فلا يوجد ظلام من تحته.

وحيث إنه غير محدود فلا يمكن أن يوصف.

إن جميع أشكاله تستحيل إلى لا شيء، لذلك يمكن أن نقول إنه لا هيئة ولا شكل له؛ فصورته بغير هيئة.

إنه يسمو عن الإدراك (لأنه أندر الأشياء).

ولتحويل أن تصل إلى بدايته، فلا يمكن أن ترى له بداية. وابحث عن

نهايته، فلا يمكن أن تتصور له نهاية. لذلك عليك أن تتبع السبل القديمة وأحسن حاضرك".<sup>٢</sup>

وكذلك في مقطع آخر يأتي وصف "طاو" كما يلي:

"إنه لا ينقسم ولا يتجزأ، ولا يمكن إدراك وتصور حقيقة كنهه. كل الخلق بدأ منه. وهو كان موجودا قبل أن تُخلق السماء والأرض. إنه أحد وحيد بلا شكل ولا صوت. وهو كائن مستقل ولا يحتاج لعون من أحد. لا يتغير فيه شيء. إنه في حركة دائبة ولكنه لا يتعب ولا يكل أبدا. ويمكن أن يُعتبر أنه السبب الحقيقي وراء الكون".<sup>٣</sup>

هذا الوصف المذكور لطاو في المقاطع المذكورة عاليه موجود أيضا في بعض الآيات القرآنية، التي تبرز كل ما أبرزته هذه الاقتباسات حين تُقرأ بعضها مع بعض.

لقد لخص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية سيدنا مرزا غلام أحمد القادياني المولود في بلدة قاديان بالهند الصفات الإلهية المذكورة في القرآن المجيد في الكلمات التالية:

"إنه قريب مع أنه بعيد، وهو بعيد مع أنه قريب...

إنه فوق الجميع، ومع ذلك لا يمكن أن يُقال إن أحدا تحته.

إنه في السماء ومع ذلك لا يمكن أن يُقال إنه ليس على الأرض.

إنه يجمع في ذاته كل الصفات الكاملة، وتتجلى فيه جميع الفضائل الحسنى التي تستحق كل حمد وثناء".<sup>٤</sup>

ومن المناسب هنا أن نذكر أن للفلسفة الصينية جذورها في الدين، ولكن مرور الوقت أخذت هذه الجذور الدينية تذبل وتضمحل إلى أن تلاشت واندثرت. وقد تمسك الأتباع بالفلسفة نفسها ولكنهم ظنوا أنه من غير الضروري إبقاء الصلة المباشرة مع المصدر الذي كان يُغذيها. وقد ترتب على هذا أن بدأ يخبو الوجود الإلهي في الأذهان، وتوقف أتباع "طاو" عن تنمية روابطهم معه باعتباره الكائن الحي الأعظم. وباختصار، ومثل الكنفوشيوسية، كانت الطاوية أيضا في مصدرها تؤمن بإله حي.. وتعتبر أنه

الحقيقة الأزلية.

وفي المصنفات الأصلية للطاوية والكنفوشوسية.. لم يكن من الكافي مجرد الفهم العقلي لطاو، ولكن الهدف الكلي للحياة يتحدد في صياغة خُلق الإنسان وأعماله حسب فهم طاو.

ومع هذا، ففي مصادر الطاوية التي ذُكرت فيما سبق، بدأ الإيمان بطاو.. كخالق حكيم وأزلي.. يندثر خلال العصور، غير أن فكرة الوحي نفسها ظلت حية، ولكن محتفية تحت اسم الإلهام. وكان التحول السافر من الوحي الإلهي.. إلى إلهام النفس بغير مصدر إلهي.. هو الاتجاه السائد بين المفكرين الروحيين في العصور اللاحقة، حتى لم يبق أي أثر للربوبية في كتاباتهم. وصار الإلهام بالنسبة لهم مجرد ظاهرة داخلية، حيث يمكن من خلال التأمل والتفكير العميق أن يصل المرء إلى ينبوع الحقيقة الكامنة داخل نفسه، ولا شك أن الغوص في أعماق النفس يمكن أن يقود المرء إلى اكتشاف الحقيقة الباطنة، ولكن التجربة الطاوية في الإلهام.. كما جاءت في الأعمال الطاوية الموثوق بها.. لم تكن تتعلق بالباطن كلية.

والإلهام في رأيهم له حدوده الخاصة فهو لا يمكن أن يقود الإنسان إلى الحقيقة الموضوعية التي تقع فيما وراء قدرة الإنسان الذي يخوض تجربة الإلهام.

إن أساس الطاوية نفسه يقوم على الرؤيا العظيمة التي رآها "فو شي"، والإلهام.. مهما كان التوسع في تعريفه.. لا يمكن بأية حال من الأحوال أن ينطبق على تلك الرؤيا. فحين تم تفسير تلك الرؤيا، تبين أنها تتضمن ينبوع المعارف، أدت إلى نشأة الكثير من الفلسفات والعلوم الصينية المتقدمة، بعد مضي أزمنة طويلة فيما بعد. ويكفي هذا لتوضيح النقطة التي نبتغي توضيحها، وهي أن الإلهامات وأحاديث النفس لا يمكن أن تخلق النبوءات، ومن المستحيل أن تكشف عن وقائع المستقبل، التي عند تحققها تقف شاهدا على وجود إله عليم، أعظم من كل ما سواه.

## المراجع

1. DAN, L. (1969) *The Works of Lao Tzzy*. Truth and Nature. The World Book Company, Ltd. Taipei, Taiwan, China. Ch. 34, p.17
2. DAN, L. (1969) *The Works of Lao Tzzy*. Truth and Nature. The World Book Company, Ltd. Taipei, Taiwan, China. Ch. 14, p.6
3. DAN, L. (1969) *The Works of Lao Tzzy*. Truth and Nature. The World Book Company, Ltd. Taipei, Taiwan, China. Ch. 25, p.12
4. *Al-Wasiyyat. Roohani Khazain*, 1984 edition, Vol.20, p.310